



تخترقني كآبة قاسية لا أدري من أين؟ أبحث عن أسبابها في حنايا الضلوع فلا أعثر عليها.. تتسرب في خلایا روحي كزخات المطر المنهمرة بغير حساب.. وأتساءل: لماذا؟! وأنا أقف بسيارتي المتواضعة في مكان خال من شارع الغابات، يطل على الموصل القديمة التي تقبع خلف النهر، بكتلتها الفريدة، القادمة من زمن بعيد، والتي تعلو مبانيها بعضها بعضاً في خطوط متعاقبة لا يكاد يفصل أحدها عن الآخر سوى زقاق ضيق يتموج كالأفعى فلا يكاد يرى.. منذ سنوات وأنا أقف هنا، فيما اعتبرته مكاني المفضل على تعاقب الفصول وتغابر الأحوال..

رحلة الصعود التي لانهاية لها

وانسى هموم العمل وروتينه القاسي الذي لا يرحم.. كنت أسترجع فرحي الضائع بين الجداول والصكوك والآلات الحاسبة.

فما الذي يحدث الآن؟ ولماذا هذه الكآبة تكاد تعتصرني والتي تلقي ظلالها الرمادية القائمة على الموصل العتيقة قبالي تماماً، فما تزيدا إلا وحشة وشحوبا؟ اللعنة على الأرقام.. قلت في نفسي وأنا أحاول أن أمعن النظر في النهر المتدفق أسفل السدة حيث تتداخل الألوان الزرقاء والخضراء والرمادية فتمنحه روعة وجمالاً.. لقد استنزفتني عبر ربع القرن من الوقوع في إسارها.



بقلم: د. عماد الدين خليل
العراق

ما الذي أريد أكثر من هذا؟ الأشجار الوارفة والنهر المتدفق بسخاء، والموصل العتيقة التي تضعني قبالة التاريخ والذكريات.. وثمة الهدوء الذي يلف المكان والذي طالما كنت أجد فيه ملاذ في أعقاب الكدح المتواصل في مصرف الرافدين، والرحيل اليومي القاسي والمتجدد من الأرقام التي لا نهاية لها، والتي لا تنبض بأية لمسة إنسانية تخفف شيئاً من الالهات المتواصل في عمليات الجمع والطرح، والضرب والاختزال.

كنت بمجرد وصولي إلى مكاني الأخير هذا بعد تناول وجبة غداء سريعة في البيت أو المصرف أستعيد صفائي

بيدو أنني لم أكن أحس بمنشارها القاسي وهو يتفرس وجودي كالزمن الذي يترصد بالإنسان.. وعلى حين غفلة، ربما في لحظة من لحظات الكشف غير الاعتيادية يتضح كل شيء، كما لو أن إضاءة خارقة سلطت فجأة على الأشياء فإذا بالإنسان يبدو وكأنه جذع شجرة متييسة تنتظر لحظة تفتتها وزوالها.. وإذا بكفاح خمس وعشرين سنة يتبلور في بؤرة واحدة تضع المرء فجأة قبالة سيل من الأحزان والتعاسات والشقاء.

ها أنا ذا في البؤرة.. قلت في نفسي.. الوعي المخيف يضيء فجأة واقع الحال، ويطالب بكشف الحساب

الختامي، قبل فوات الأوان، ولابد من التسديد..

في السنوات الأولى كنت أجد متعتي في الرحيل اليومي مع الأرقام، لاسيما عبر تلك اللحظات التي تتمخض فيها الحسابات عن نتائج محكمة غير قابلة للخطأ بأية نسبة على الإطلاق. وبمرور الوقت تمرست على أسلوب في الاختزال الزمني يمكنني من الوصول إلى النتائج الدقيقة، فيما اعتبره المدراء العامون نوعاً من اللماحية النادرة، أو القدرة الاستثنائية في عالم المحاسبة لم تؤثر لأحد من المحاسبين من قبل..

كان ذلك قبل أن يطل الحاسوب على الدنيا ويدخل الساحة لكي يسد الطريق على الذكاء البشري والحالات المدهشة، والقدرة الأسطورية على اللعب بالأرقام واكتشاف المجاهيل.

وبمرور الوقت أخذ الملل يتسلل إلى روحي وعقلي، وأصبحت أمارس المهمة اليومية دونما أي قدر من المتعة بيد أن ما كان يعزيني ذلك الطموح النهم لتسلق درجات السلم الوظيفي الطويل والوصول إلى القمة.

وجاءت ترقياتي السريعة لكي تختزل الزمن هي الأخرى، وتمنح طموحي مصداقيته فما يزداد إلا توهجاً.. وما لبثت رحلة الصعود السريع إلى فوق أن أصبحت هدفاً بحد ذاتها.. ولكنه الهدف الذي يملأ الجوانح ويستجيب للنداءات، ويمكن الإنسان من تجاوز لحظات الملل والقرق عبر بضع وعشرين سنة من الوقوع في أسر الأرقام.

لقد غدوت الداء والدواء.. كنت أردد مع نفسي، ثم ما لبثت أن اتحفر لاجتياز الخطوة التالية إلى الأعلى.. كفاءتي المدهشة، وإخلاصي الذي قل نظيره، كانتا الوقود الذي يعين على الصعود لكن الأمر لم يدم طويلاً على هذه الحال.. إذ سرعان ما اخترقت بقوة لا تقهر ووجدتني أضيف إلى الجمر المتألق شيئاً من الفحم والحطب لكي أزيده اشتعالاً.. أصبح الوصول إلى القمة بأي ثمن هو هاجسي اليومي.. وأحياناً كنت أقول مع نفسي ما هكذا بدأت يا رجل، ثم ما لبثت أن أبرر الأمر كله بقوة الطموح الأسطورية التي تمنح صاحبها أحياناً أساليب مضافة للحركة وتجيز له ما لا تجيز للآخرين.. فالعبرة دائماً في النتيجة.. والنتيجة هي أن أبلغ القمة.. فالذين تربعوها قبلي ما كانوا أكثر مني كفاءة وإخلاصاً، لقد كانوا أقل مني بكثير.. وهذا يكفي.

ويوماً بعد يوم راحت مفردات مما يدعوها الناس «الأساليب الملتوية» أو الصيغ غير المقبولة» تتسلل إلى ممارساتي الوظيفية، وبخاصة مع مدرائي، في محاولة لتطويعهم لدفعهم إلى مآيديهم إلي بقوة أكثر، لاجتياز درجة أخرى في السلم الطويل.

في البدايات كان ذلك يعذبني، وكنت أرجع إلى البيت مثقلاً مشتتاً مهموماً.. وعبر الليل، خلال لحظات التوقف

القاسية كان الندم يخترقني كالسكين فأقرر ببني وبين نفسي أنني لن أرجع لمثلها، وأطمئنهما بأنني بمجرد وصولي، سأفعل للآخرين الكثير مما يعجزون هم أنفسهم عن فعله.. وسأعوض ما فات.

لكن، ما أن يطلع ضوء النهار حتى يطرد بأسلوبه الخاص كل الهواجس والظنون، ويخيل لي أن ما أفعله ليس بدعاً من الأمر، فما هو إلا الطموح المشروع لرجل شهد العاملون جميعاً بتفوقه وجدارته.

واليوم صباحاً، ولم تكن الساعة قد تجاوزت الثامنة والنصف إلا قليلاً، دق جرس الهاتف، فرفعت السماعة بتثاقل وأنا منهمك بالتوقيع على حفاة من الصكوك، وما لبثت أن فوجئت بعامل البدالة يقول:

- السيد وكيل الوزارة من بغداد.. معك على الخط. انتفض قلبي بعنف وازدادت دقاته حتى أنني أحسست بالوجع يتسلسل إلى صدري ويضيق الخناق على أنفاسي..

- أهلاً ومرحباً بالسيد الوكيل. - أهنئك.. لقد صدر الأمر بتعيينك مديراً للمصرف! قلت وأنا أدافع ضربات القلب والإحساس بالاختناق، وأنصنع التواضع:

- ولكن.. - لقد أعطيت شيئاً مما تستحقه.. إننا نعرف عنك كل شيء.. أهنئك مرة أخرى..

أقفل السماعة.. فهرعت برد فعل مواز لإقفال الباب كي لا يدخل علي أحد.. تلك هي عادتي، أن أدخل إلى نفسي لكي أرتشف الفرحة لحظة بلحظة حتى الثمالة.. ثم عدت ثانية لكي أستلقي على الكرسي الدوار، وأنا أسحب نفساً عميقاً. - ها أنت ذا أخيراً أصبحت مديراً عاماً.

وأحسست بموجة من التشتت تكتسحني وتحاول أن تمتص شيئاً من فرحي الطاعني، فمددت يدي على غير قصد مني إلى الهاتف، ثم ما لبثت أن أعدت السماعة إلى مكانها. - مع من أردت التحدث؟

تساءلت مع نفسي دون أن أتلقى جواباً محدداً.. ورحت أترجح على الكرسي ذات اليمين وذات الشمال لامتنصاص شيء مما يضطرب في جوانحي، فما ازددت إلا توتراً، فنهضت قائماً ورحت أذرع الغرفة الضيقة بسرعة، جيئةً وذهاباً..

- ها أنت قد أصبحت مديراً عاماً. قلت في نفسي مرة أخرى. - لقد كان اجتيازاً موفقاً.. وأنت اللحظة تقف في قمة السلم العالي.. ليس ثمة أحد فوقك! وللمرة العاشرة يزداد وجيب القلب وتنتسارع ضربات الموجعة.

- هل من حاجة لمراجعة الحساب؟

تساءلت بيني وبين نفسي، وثمة وخزة قاسية اخترقت روحي كالسكين وأنا أتذكر بعض الممارسات التي اعتبرها الآخرون خارجة عن مطالب الأخلاق الشريفة. وبذلت جهداً استثنائياً لدفن الإحساس القاسي في طبقة بعيدة والعودة ثانية إلى تيار الفرح والتحقق الذاتي.. - ليس ثمة شيء مما يחדش قناعاتي على الإطلاق.. وما هي إلا وساوس الشيطان!.

وقفزت إلى الهاتف ثانية متذكراً أن علي أن اتصل بزوجتي لكي أرف إليها النبأ السعيد قالت ورجفة صوتها تصيبيني بعدواها.

- مديراً عاماً؟

- نعم يا إلهام.. ألا يحسن بك أن تهنيئني أولاً؟

- لقد أنستني المفاجأة.. فاعذرني..

قلت وأنا أقوم باستدارة كاملة على الكرسي الدوار.

- لا تنتظريني ظهر اليوم.

- لماذا؟

- إنك تعرفينني جيداً.. أريد أن أدخل إلى نفسي ساعات، هناك في مكاني المفضل قبالة النهر والمدينة العتيقة.. ثمة أشياء كثيرة أريد أن أصفي معها الحساب.. قالت قبل أن تضع السماعة.

- أما تعبت من تصفية «الحسابات»؟ ربع قرن وأن تسبح في تيارها..

وما لبث الزملاء أن قطعوا علي خلوتي.. يبدو أنهم سمعوا النبأ.. والبركة في عامل البدالة.. وراح باب الغرفة يطرق بعنف، وجرس الهاتف يدق بإلحاح، ووجدتني مضطراً لاستقبال الزملاء والإجابة على المكالمات الهاتفية.

عيون المهنيين وأصواتهم وملامح وجوههم بانوراما مفتوحة على مداها.. كتاب ينطوي على العجائب والمفارقات لمن يعرف كيف يقرأ... رأيت، وأنا أقلب سمعي وبصري فيها، المحبة والألفة والوفاء والإخلاص.. ورأيت الغيرة والحسد والكراهية والنفور واللؤم والخداع.. ستار النفاق الشفاف تمكنت من اختراقه بسهولة، وأنا أقول في نفسي: ليتني لم أمتح القدرة على هتك الأستار، فإن ما رأيته كان أحد على روحي وأعصابي من شفرات السكاكين.. ولكن لأبأس، فما هي إلا دقائق ويذهب كل لحال سبيله يأكل قلبه الغيظ.. أما أنا فسأعرف كيف أجتز الفرح وأطيل أمد ما أمكنني ذلك.. إنني أعرف جيداً أن الفرح أي فرح، كبيراً كان أم صغيراً لا يدوم طويلاً، فما هي إلا دقائق أو ساعات حتى يصبح أمراً اعتيادياً، وقد تقود ردود الأفعال وغرائب النفس البشرية إلى النقيض فنضع الإنسان في دائرة الكتابة المقفلة إلى حد الاختناق.. ولكنني سأتحدى نزوة النفس وأمنح الفرح مساحة أكبر بكثير مما اعتدته في الخبرات السابقة إنها مناسبة نادرة

ليست كالمناسبات، وهي لا تتحقق سوى مرة واحدة في العمر فليكن جزاؤها عزيزاً نادراً.

وللحظات تذكرت ما كانت تقوله عيون بعض الزملاء دون أن تنطق ألسنتهم بشيء، فانغرز نصل حاد مترع بالسسم في قلبي، وعكر علي صفائي.. دافعته بضراوة فأصر على أن يعرّش هناك.. أعملت فيه مقصّ إرادتي الحادة التي لم تلن لها قناة، وتمكنت بعد كفاح قاس.. من استئصاله. - عليك اللعنة.

قلت في نفسي.. لطالما مارست تعذيباً.. أما الآن.. في هذا اليوم بالذات.. فلن أسمح لك!!

ما لبث المدير العام السابق الذي صدر أمر نقله إلى بغداد بدرجة أعلى، أن استدعاني، فوجدتها فرصة للهروب من سيل المهنيين الذين اختلطت في كلماتهم المحبة والبغضاء..

هنائي الرجل بحرارة وهو يقول:

- لقد أخذتها بجدارية يا عبد المنعم!

حاولت أن أشكره فقاطعني:

- أكثر من عشر سنين وأنا أتابع نشاطك المدهش وقدراتك المتميزة وأرفع عنك التقارير إلى الوزارة.. وها قد حان أوان الحصاد..

- أشكرك أيها السيد المدير.. وأرجو أن أكون عند حسن ظلك.

وقاطعني مرة أخرى وهو ينهض لكي يحتضنني بقوة وهو يقول:

- أرجو لك التوفيق.. وعسى أن ألتقيك لدى زيارتك لبغداد.

أحبته وأنا أغسل بمحيته سموم «الزملاء»..

- ستترك فراغاً كبيراً في المصرف أرجو أن أسد جانباً منه.

اتجهت إلى البوفية لتناول غداء خفيف، ثم ما لبثت أن تركت المصرف دون أن أمر على غرفتي خشية أن أتلقي «تهاني» أخرى قد تعيدني إلى دائرة الكدر وانطلقت بسيارتي إلى مكاني الأخير.

- قد أحتاج لأكثر من ساعتين أو ثلاث لتصفية الحساب!

قلت في نفسي، وأردفت:

- سأعرف كيف أرتشف الفرحة حتى الثمالة، وسأحاول أن أنفذ جرداً تاماً للأفعال وردودها مما تشكل صبيحة اليوم وأفضل بين ما يجب أن أحتفظ به وما يجب أن يمحي إلى الأبد.. ولكن هل سأتمكن من ذلك؟ إنني بقدر ما يتعلق الأمر بالفعل المنظور الذي تصنع الإرادة، ويدفعه الجهد والذكاء إلى غايته، أعرف كيف أمسك بزمام الأشياء، ولكن حيلتي تخذلني وأنا أحاول أن أهيمن على ما يضطرب في جنبات النفس.. الأصوات التي تهدر فيها والتناقضات الحادة التي



تصطرع في ثنائياها.. حاولت كثيراً ولكنني عجزت.. أترأها
إحدى المفارقات التي يتحتم أن يتعلم منها الإنسان؟
ها هو ذا شارع الغابات الصاعد شمالاً إلى حافات
المدينة القصوى، وها أنا ذا ألقى مرساتي قبالة النهر
والمدينة العتيقة، متخذاً من هدوء الظهيرة، والأجواء
الشتوية، والسماء التي تسج مطراً خفيفاً، ضمانات
مناسبة للانفراد بنفسي، وحيداً بإزاء الأرض والنهر
والأشجار والغيوم والدور القادمة من رحم التاريخ.
تساءلت وأنا أتلقى رشقة غير متوقعة من الكآبة
فألوح لها بيدي كما لو كانت شيئاً شاخصاً يقف قبالي:
- لن أدعك تمرين.. لقد عرفت قواعد اللعبة، ولسوف
أوصد بوجهك الأبواب..

ورفعت صوتي على غير إرادة مني:
- هذا يوم الفرح الذي انتظرت طويلاً، ولن يكدرني
شيء!.

وللحظات أحسست كما لو أن أحدا يسخر مني..
وسواساً خفياً يومئ من بعيد بأن الأمر ليس بيدي، وإنني
إذا كنت قد اجتزت امتحان الصعود بنجاح فإن ثمة
امتحاناً أشد صعوبة ينتظرني اللحظة وأنا في القمة، ولن
تستطيع قوة في الأرض أن تعينني على اجتيازه هذه
المرة..

وعلى حين غفلة وجدتني أمام السؤال المترع بالحيرة
والغموض والمرارة والتحدي:

- ثم ماذا بعد يا عبد المنعم.. ها أنت ذا تصعد إلى الأعلى
كما تمنيت واشتهيت.. وتصبح عبر زمن قياسي لم يتسن
للآخرين مديراً عاماً لمؤسسة مالية كبيرة.. ثم ماذا بعد؟

وتذكرت وأنا أقف قبالة السؤال، أنني نسيت في دوامة
تعاملي اليومي مع منظومة الأرقام، واستغراقي في جداول
الأرصدة والحسابات السنين الطوال، وتشبثي بالصعود
السريع إلى أعلى درجات السلم بقوة الجهد الوظيفي المتأخر
الذي لم يترك أي هامش «للإنسان» في كياني، نسيت أنني
غدوت أنا الآخر - بشكل من الأشكال - حاصلاً رقمياً أو
جدولاً حسابياً رتبته أرصدته بعناية، ولا شيء وراء ذلك
على الإطلاق.. لقد اخترت بارادتي أن أصير رقماً أنا الآخر..
أن أختزل كل الأبعاد والمنحنيات والمساحات الإنسانية في
كياني إلى معادلة حسابية تضيق فيها الروح وينسحب
الوجدان، وتكف المتغيرات، ويصمت الوجيب الذي يمنح
الحياة طعمها وتدفعها.. تباعدت شيئاً فشيئاً عن زوجتي
وأولادي.. انفصلت بمرور الوقت عن نداءات الحياة
وهسيسها العذب في طبقات الوجدان الموهلة، وتمحضت
لشيء واحد فقط هو ملاحقة الأرقام وتصفية الحساب
معها، والركض السريع عبر درجات السلم إلى أعلى.

ها أنا ذا أكتشف - فجأة - أنني ضحية ببطانتي
الإنسانية، سمحت لنفسي أن تدخل في دائرة الأسر في

المحدود حيث يتمكن العقل من الإمساك بتلابيب المعادلات
والأرقام ولكنه يفقد شيئاً فشيئاً سر طلاوة الحياة
الضائع وسط ركام الجزئيات المنظورة، والمطامح التي لا
تملك القدرة على التجدد والانبعاث ومواصلة الطريق..

ويستفزني السؤال المحير مرة أخرى.

- ثم ماذا بعد يا عبد المنعم؟

- هنالك أشياء كثيرة أخرى سأعترف لك بها..

اللحظة... فلقد آن الأوان لتصفية الحساب.

قلت وكأنني أحدث شخصاً ما يقف أمامي.

- لقد أنستني الأرقام والمطامح الوظيفية واللهاث

المتواصل، شيئاً آخر.. شيئاً أكبر بكثير وأهم بكثير.

وللحظات أحسست كما لو أن رجفة تسري في روحي

فتجعلها تنتفض كعصفور بلله القطر.. وصرخت في محاولة

لاختزال معاناة العمر كله، وكدحه، وقهره، وإحباطه:

- الله!!!

ولدهشتي تذكرت أنني طوال عملي الوظيفي وكفاحي

القاسي للصعود، لم أمحض نفسي لحظة واحدة لله،

وأنتي أهلت التراب، منذ زمن بعيد، على نداءات الإيمان

الذي لم يكف قطاره عن اجتياز المسافات عبر رحلة التجدد

التي لا تتوقف أبداً.

وقلت وأنا أدير مفتاح السيارة استعداداً للعودة:

- عبث والله يا عبد المنعم، ومع ذلك فإن الوقت لم يفت

بعد، وأمامك الكثير! وما لبثت أن غمرتني موجة من الطمأنينة

والرضا ما تذوقت طعمها العذب من قبل.. ولأول مرة في

حياتي اكتشفت أن بمقدور الإنسان أن يجعل حياته مترعة

بالسعادة، أو معيأة بالتعاسة والشقاء، وأنه قد منح لحظة

وعيه المفتاح ولكنه لم يشأ أن يتعلم.

غادرت المكان وأنا ألقى نظرة محملة بالود للنهر

والأشجار والغيوم والمدينة العتيقة وقلت في نفسي كمن

يحس بامتنان عميق لكل ما في الوجود من حوله:

سأرجع فأقول لإلهام.. إنني اللحظة فقط بدأت رحلة

الصعود التي لا نهاية لها!!!